

نخيل العراق

في كتابات الرحالة (2-2)

(أبو العلاء المعري)

وزرنا أشرف الشجر النخيل

شربنا من ماء دجلة خير ماء

علي عفيفي علي غازي
afifyhistory@hotmail.com | ★



مصنوعات من النخيل

تفيض النخلة بخيرها الوفير، فكل شيء فيها مفيداً، ابتداءً من جذعها وثمارها، وانتهاءً بسعفها، وقد اعتاد الناس منذ القدم في المناطق الصحراوية الغنية بالنخيل أن يعتمدوا على النخلة في كل الأمور التي تمس حياتهم ومعيشتهم، وعلى هذا قامت عليها العديد من الصناعات التقليدية، التي لها علاقة بمشتقات النخيل، فيستخدم سعفها في صنع الكراسي والأقنص والأسرة، والمكانس والحصران والأطباق، والمراوح اليدوية، ومن ليفها تصنع الحبال، فقد كانت بمثابة مصدر اقتصادي هام للمجتمع العراقي، ويستخدم البدو خشب النخيل في صنع طبول، فتذكر أن بلنت Lady Anne Blunt ”حضرنا عرضاً ترفيهياً من الرقص والغناء، شارك به دواس فضلا عن الجنود، فأدوا نوعاً من الرقص بالسيوف، يقوم فيه أحدهم بالضرب على طبل مصنوع من خشب النخيل وجلد الخيول“.

الكتابة عن نخيل العراق في كتابات الرحالة، تواجه بعض الصعوبات، لأن السمة الظاهرة والعامية، أنه لا يوجد رحالة زار العراق، إلا وكتب عن نخيله؛ ولهذا فإن دراسة النخيل في كتابات الرحالة تحتاج إلى أفراد لكل رحالة بحث خاص به، ولكن في هذا البحث، سنسعى للوقوف على النقاط العامة الرئيسية التي وردت في كتابات هؤلاء، باختصار موجز، دون إخلال، وعلى هذا سوف نتناول الموضوع من خلال العناصر التالية: النخيل في التراث العراقي، مقياس للملكية، مصدر للغذاء والضيافة، ثم نعرض بالذكر على النخيل كصناعة وحرفة اشتهر بها سكان هذه المنطقة الغنية بالنخيل، واستخدامات أقسام النخيل كمواد خام للبناء، وسيلة للتدفئة والإنارة وإعداد الطعام، أداة للقتال، مصدر للاستغلال، سلعة تجارية، وأخيراً دواء، وذلك من خلال المنهج التحليلي المقارن، لنحلل ما ورد في ثنايا كتابات الرحالة، ونقارن بينها قدر المستطاع.





كسما،

فيذكر أنه «يحرق

القش وسعف النخيل الجاف

ثم يدفن رمادها بالأرض لتغذية

التربة».

ومن الصناعات البدوية البدائية، من سعف النخيل «الحصائر التي تقرش للطعام، وقد يصبغونها بألوان حمراء أو زرقاء بنماذج بدائية. أما حصائر الفرش فتصنع دون ألوان. هناك بعض الأشياء الأخرى ينسجونها من سعف النخيل أيضاً، مثل المراوح المستخدمة في إشعال النار والمقشآت، ومراوح ذات أيد قصيرة يستخدمونها في إبعاد الذباب عن الأشخاص المهمين». ويتم ذلك عن طريق تفكيك قواعد الجريد وسحقها لإنتاج كتلة ليفية تستعمل كمقشآت يدوية. ويمكن استخدام قواعد الأوراق بطول يزيد قليلاً على القطعة الرقيقة التي تصلح لعمل يد المقشاة.

وصنع أهل العراق أيضاً من الجريد أسرة للنوم، وبعض المقاعد للجلوس، ومهود الأطفال، فقد لاحظ ولستيد وجود حصر من سعف النخيل بداخل بيوت بغداد «والفرش الوحيد الذي ينام عليه القوم هي الحصر المحاكاة من سعف النخيل، والتي يلقي فوقها غطاء خفيف مصنوع من القطن».

المكلفين بإعداد ووضع الطعام «سفرات مدورة صنعت من سعف النخيل يفرشونها ويضعون الطعام فوقها».

وتصنع من وريقات النخيل وخصه بعد ترتيبها في حزم مسطحة أكياس للتعبئة، فقد شاهد باركلي رونكيير أخراج تحملها الحمير في الكويت مصنوعة من سعف النخيل «على مسافة قريبة (من السوق الكبير في الكويت) يقع سوق الفحم الذي يبيع الفحم المستورد غالباً من إيران، ويغض ذلك السوق بالحمير، التي تحمل على ظهورها أخرجاً مصنوعة من سعف النخيل، ملئت بالفحم». «وعندما ينقلون امرأة من مكان إلى آخر فهم يستعملون قفصاً من سعف النخيل يغطونه بقماش ويضعونه على أحد جانبي شداد البعير. والحمل الجميل هذا - وأحياناً يكون سميماً - يوازن على الناحية الثانية من الشداد بكمية من المتاع». ويشير رونكيير إلى استخدام سعف النخيل

لقد استخدم أهل العراق معطيات هذه الشجرة السخية لتلبية مختلف احتياجات معيشتهم، لأن النخلة كانت الشجرة الوحيدة، التي استفاد منها الإنسان على مدى مئات السنين، من كامل أجزائها بدءاً من الجذوع إلى الألياف، حتى السعف والجريد إلى جانب الثمار، فيرصد لنا جون جاكوب هيس المرسى، بأنه «حبل البئر المصنوع من ألياف النخيل، لا يصلح لسحب الماء لأنه يجرح اليد». ويمتاز ليف النخيل باحتوائه على خيوط طويلة يسهل فصلها وعزلها لإنتاج أنواع جيدة من الحبال. ويشير إلى أن من ضمن محتويات خيمة البدوي، وبيت الشعر، الخصفة، وهي «حصير من أوراق النخيل، تشتري محلياً»، حيث تستخدم كأكياس تحفظ فيها التمور.

وقد أفاد العرب جميعاً من النخيل أيما فائدة، فاستخدموه في مختلف مرافق حياتهم، وتعددت الاستخدامات لتشمل كافة أجزاء النخلة، فيرصد تشارلز داوتي Charles m. Doughty في مدينة العلا بنجد حصير مصنوع من سعف النخيل تصنعه النساء، فأشار إلى أن «أرضية مجلس المهوى مغطاة بحصير من سعف النخيل تضفره النساء».

ومن السعف والخصف صنع العراقي أكياس توضع فيها التمور، والسلال والأقفاص، وأشادت الليدي درور إلى أن مدينة كربلاء تنتشر بها من سعف النخيل «صناعة السلال الملونة، تحاك في المدينة، ويشتريها كثير من زورها».

ولاحظت الفرنسية مدام ديولافوا قيام صناعة الأقفاص في المحمرة من سعف النخيل، فعندما وصلت مينائها لفت انتباهها وجود «أقفاص جميلة صنعت من ألياف النخل تستعمل لخبز الأسماك التي تصطاد، والتي تقيض عن البيع، فتوضع هناك لعرضها في السوق في الوقت المناسب».

وفي قصر الشيخ مبارك الصباح، شيخ الكويت، شاهد باركلي رونكيير في أيدي العبيد

وقد لاحظت مدام ديولافوا وجود سفن شرعية لنقل الحبوب والبضائع في بغداد مصنوعة من جذوع النخيل، فقالت: «أرى في وسط النهر زوارق أخرى بأشكال وأحجام مختلفة، وهي في حركة دائبة، وثمة سفن شرعية، تحمل الحبوب والبضائع الأخرى، وتصنع مثل هذه السفن - في العادة - من جذوع النخل، وتطلى بطبقة كثيفة من القار من الداخل والخارج».

وعن تكلفة صناعة هذه السفن وصيانتها تذكر أن «مثل هذه الوسائط للنقل لا يكلف صنعها مبلغاً كبيراً من المال، كما أن إصلاحها إذا ما أصابها عطب سهل ميسور، وهو أن يتم طليها مرة أخرى بالقار. وأرى من مكاني هنا عدة أشخاص منهمكين في صنع واسطة كهذه الوسائط النقلية. كما أرى قسماً منها على وشك الانتهاء، تعالت رؤوسها إلى أعلى، وفوق سطحها يذبح العمال القار بواسطة النار، ويطلون به جذوع النخل، التي صنعت منها السفينة، كما نفل نحن تماماً في تبييط شوارع باريس. وتستخدم هذه السفن عادة في السفرات الطويلة بين بغداد والبصرة».

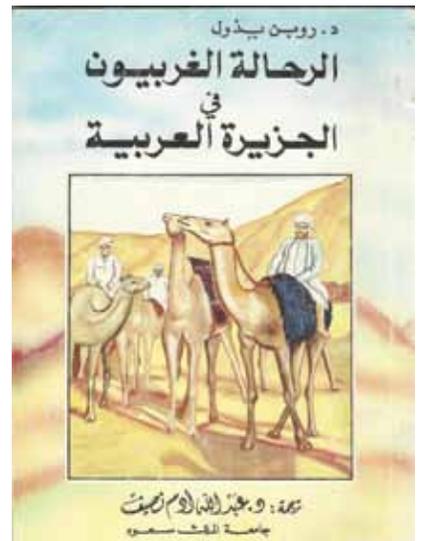
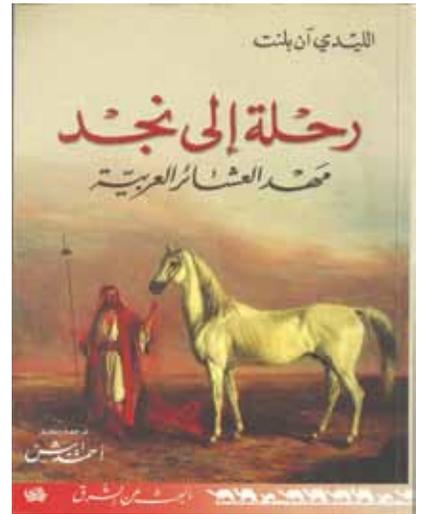
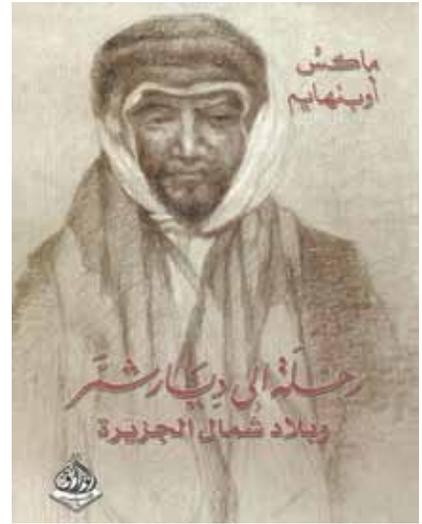
وكذلك لاحظت استخدام القفة من سعف وجذوع النخل للتنقل بين جانبي بغداد: الكرخ والرصافة «أما ما يستخدم بين العاصمة وضواحيها والقرى القريبة فيوسيلة أخرى تسمى «القفة» وهذه تكون على شكل دائري مقعر، وتصنع عادة من سعف وجذوع النخل، وذلك بعد أن تطلى بطبقة كثيفة من القار، والقفة يديرها شخصان، ويسيرانها بواسطة مجاديف طويلة، يحركانها تارة هنا وأخرى هناك، لذلك هي أقل الوسائط الأخرى سرعة، ولكنها أمانها وأكثرها اطمئناناً من التعرض لأخطار الغرق، وإن شحنت ببضائع ثقيلة، ولم يفصل حافتها عن مستوى الماء إلا خمسة عشر سنتيمتراً فقط. مع ذلك لا تخترقها قطرة واحدة من مياه النهر. والقفة هذه تكاد تختص بحمل أنواع الفواكه المختلفة مثل الرقي والبطيخ

وعند وصف وليم جيفورد بالجريف W. G. Palgrave لطريقة إعداد القهوة في البادية يشير إلى استخدامهم لمصفاة مصنوعة من ألياف النخيل فيذكر أنه بعد الانتهاء من طحن وجلي القهوة، قبل أن تقدم للحاضرين يصفى "السائل عبر ألياف مأخوذة من اللحاء الداخلي للنخيل، وموضوعة لهذا الغرض في فم الإناء".

وتعد صناعة السفن الخشبية من أهم الصناعات، التي نالت قسطاً كبيراً من الاهتمام والشهرة في العراق، ولفتت أنظار الرحالة بشدة، وأشار ميهاي فضل الله الحداد إلى استخدام العراقيين لقوارب من سعف النخيل للتنقل بين ضفتي النهر في بغداد، فقال «هناك واسطة نقل مبتكرة، قوارب غريبة الشكل، مكورة تصنع من سعف النخيل، وتطلى بالقار المجلوب من هيت، يشبه شكلها نصف بطيخة، ومن لم يعتد عليها لا يستطيع تحريكها لا إلى الأمام ولا إلى الخلف».

وأشار كذلك كاسبارو بالبي Gasparo Balbi لوجود مثل هذه السفن في هيت فقال «إن سكان تلك النواحي يشيدون بيوتهم من أغصان الأشجار، ثم يطلونها بطبقة سميكة من القير حتى يمكن القول بأنهم يقيمون جدراناً مقيرة، وبهذه الطريقة نفسها يصنعون السفن من سعف النخيل، ثم يضعون كمية كبيرة من القير فتؤدي الغاية المتوخاة كما لو كانت مصنوعة من ألواح الخشب كما نفعل نحن».

والمح لوجود بطانة للسفن الكبرى، أعدت من سعف النخيل، لأجل أن تجعل السفينة أكثر استعداداً للحوادث، فقال «إنها بالحقيقة أقوى وأكثر استعداداً للحوادث، التي قد تصادفها في البحر، ومن أجل إعدادها لهذه الحالات، فإن السفن مبطنة من الداخل بسعف النخيل، وهذه البطانة ليست متصلة مباشرة بجسم السفينة أو قعرها، بل تفصلها فواصل، لذا فعند تسرب الماء قليلاً إلى الباطن يبقى في قعرها تحت هذه البطانة».





احدى شوارع بغداد



وسائل النقل النهري في بغداد عام 1914م

فذكرت أن «ثمر النخيل يمكن أن تستقطر منه أنواع المشروبات الكحولية، وللحكومة (تشير إلى معمل كان موجوداً إبان عهد الاحتلال البريطاني للعراق) معمل تقطير تجريبي في البصرة ينتج أنواع المشروبات التركيبية الرخيصة، كالويسكي، والجن، والروم، والعرق، وكوميل، وما إلى ذلك، وكلها من التمر بعد تكييفه، كما تصنع الحبال من ألياف النخل وتتسج، ومن خصوه تصنع المكناس والسلال والحصران. ويستعمل خشبه في صنع كثير من الأشياء، وللتسقيف، ولعمل الأسرة والمقاعد والأقفاص، ويستفاد منه في الجسور، وهو مادة للوقود أيضاً، وعلى الرغم من هذا كله، هناك من يقول إنه طعام سرعان ما يمله الإنسان».

ومع ظهور عصر التكنولوجيا والتقدم الصناعي استخدم جذع النخلة في كثير من الأغراض، فإلى جانب استخدامه في صناعة أصناف جديدة من الأثاث، استخدم أيضاً في صناعة المشغولات الخشبية، وفي أغراض الزينة والديكور، ولعب الأطفال.

والخلاصة، إذا كان لثمار النخيل أهميه غذائية كبيره، فإن لمنتجاتها الأخرى أهمية أكبر في حياة الإنسان، فمن أليافها تصنع

قرمزي اللون، وأصداف بحرية صغيرة...، وكانت تتدلى من الحيطان كذلك حصائر من سعف النخيل «سفر» تفرش على الأرض، في كل القرى العربية، لتوضع عليها صواني الطعام». بل إن الرحالة يوليوس أوبتغ قد صنع مروحة من سعف النخيل «لطرده الذباب الكثير».

بينما أشار ماكس أوبنهايم إلى وجود نوعاير من خشب النخيل تستخدم لرفع المياه، ولكنها غير جيدة الصنع، وقليلة العمر، لرداءة هذا النوع من الخشب، وعدم قدرته على التحمل فذكر أن الناعورة تشبه «آلة الرفع عندنا، وهي عجلة كبيرة موجودة في الماء، وتدور بقوة الدفع المائي. على العجلة تثبت أوعية فخارية تمتلئ بالماء، ثم تفرغ ما فيها في قناة تنقل الماء إلى الياصلة. ومن أجل تقوية ضغط الماء الجاري في النهر يبني عادة في النهر سد حجري. بدت نوعاير دير الزور غير متينة، وقابلة للكسر، لأن خشب الحور، وخشب النخيل الموجود هنا غير مناسب لهذه الغاية».

هذا ويستخدم سائل النخيل في إعداد مشروبات متخمرة، وفي بعض الأحيان يستخدم جزء من السائل المتخمر كبادئ للإسراع في عملية التخمر للسائل الجديد، وإلى هذا الاستخدام أشارت الليدي درور

في فصل الصيف إلى بغداد».

وفي الحقيقة يمكن القول إنه لا يخلو جزء من أجزاء النخلة؛ إلا وله استخدام ما في مجال الحرف اليدوية، والصناعات الصغرى البسيطة، التي تساهم بقدر في رفع المستوى المعيشي لحياة المزارع؛ باعتبارها مصدراً مهما من مصادر الدخل، وقد لاحظ وليد الزبيدي إشارة الرحالة الفرنسيين إلى العديد من المصنوعات من أخشاب النخيل فقال «وتصنع كذلك الأسارير والكراسي من أخشاب سعف النخيل، في حين تستخدم أوراق السعف ذاته في صناعة السلال والحصران، فضلا عن ذلك، تصنع من سعف النخل قفات مدورة، وهي نوع من القوارب المغطاة بالزفت، تستخدم هذه القوارب الصغيرة بشكل عام في عبور الأنهر». «ويجب القول أيضاً أن النخلة تعود على العرب بخدمات عديدة، ف فيما عدا كونها تعطي فاكهة، فإن سعفها يستخدم في صنع الأسارير الخشبية والكراسي والأقفاص وأنواع أخرى من الأثاث».

وعند وصف داوتي لمسكن شيخ العلا قال «تتدلى من حوائط الغرف أدوات يدوية صغيرة تدرس بها الحنطة، مصنوعة من سعف النخيل، ومزينة بأربطة من قماش

النخيل، وهي أجنحة خاصة ”معدة للجلوس ممتدة أحياناً عبر الشارع لتتصل بالبيوت من الجانبين، فتضفي بذلك تنوعاً مبهجاً على طراز البناء، وخاصة حينما تشاهد، وهي نصف مظلمة بسعف النخيل، الذي يعلوها من ساحة الدار في الداخل، وقد كان هناك في الجو العام المتكون من التنوع البارز، وطراز البناء، والملابس الغريبة، واختلاط الخضرة، وخاصة سعف النخيل، ما يعيد إلى الذهن، حينما ينظر إليه من وسط الشوارع الأكثر استقامة ذكرى مشوشة عن بلاد أخرى أكثر شهرة في العالم، بلاد عليها مسحة ما، ديراً في جزر الهند الشرقية والغربية أو ما أشبه، بلاد تولد في النفس مقداراً من البهجة والانشراح يزيد على كل حال، على المنظر الحقيقي“.

ولم يشاهد جان باتيست تافريينييه Jean Baptist Tavernier في رحلته لمدة ثلاثة أيام على جانبي نهر الفرات شمالي بغداد «شيئاً غير أكواخ حقيرة من سعف النخل، يسكنها بعض الفقراء الذين يديرون ناعوراً لسقي الأراضي المجاورة».

وفي سوق الكويت، شاهد باركلي رونكبير قلع «مصنوعة من سعف النخيل، أو القماش تحملها أعمدة بسيطة من العصي بحيث تكون في مجموعها أكواخاً صغيرة يجلس في ظلها التجار، ويضعون أمامهم بضائعهم». ورأى كذلك أكواخ بنيت من سعف النخيل ”قامت أيضاً على مسافات مختلفة بين الزوارق والأخشاب أكواخ صغيرة من سعف النخيل تصلنا من داخلها الدقات المنتظمة، التي تصدرها أجران هرس القهوة“.

وكان جذع النخلة يمثل الجانب الأكبر في سد حاجات مواطني المناطق الصحراوية والريفية، خاصة أنه ينتشر فيها بكثرة، حيث استخدمت شرائحه في صناعة أبواب ومنافذ مساكنهم وعوارض أسقفها، كما استخدموه كفواصل بين الحجرات، وقد تجوف فلقة الجذع وتستخدم كميزاب لسطوح المنازل،

الحيال، كما استخدمت الجذوع في إقامة الجسور والقناطر، وكقنوات للري ومجاري للمياه، واستخدم السعف في تغطية الأسقف والقمريات، وفي عمل الحصران، ومراوح التهوية اليدوية، وأدوات التنظيف والمكانس، كما استعمل جريد السعف في صنع الأثاث المنزلي كالكراسي والأسرة والمكتبات، وفي صنع الأقفاس.

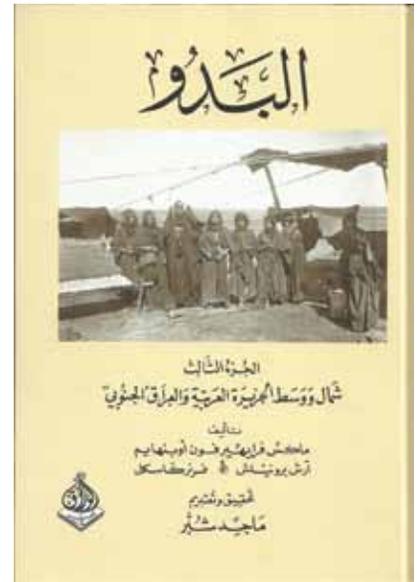
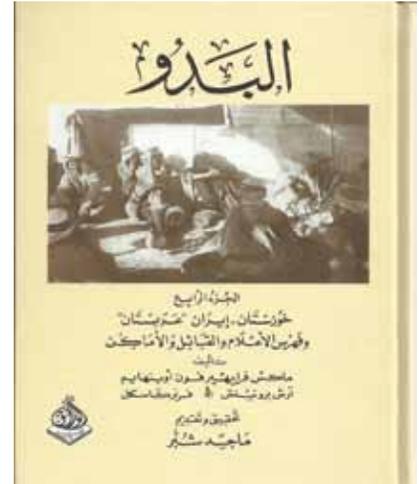
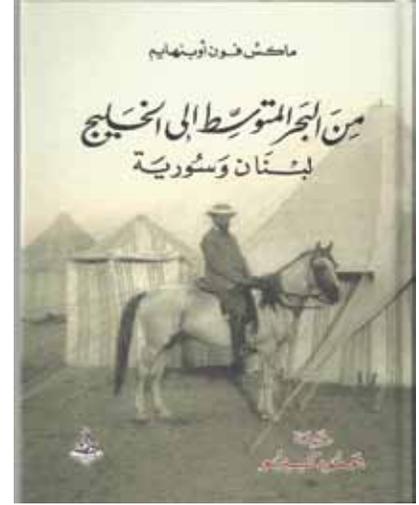
النخيل مادة للبناء

تعددت استخدامات النخلة لدى العراقي لتشمل كافة أجزاء النخلة، فالجذوع استخدمت في أمور كثيرة منها: سقف البيوت، وصناعة الأعمدة الحاملة للسقوف، والعوارض لإسناد سقوف الأكواخ، وهي البيوت القديمة التي عاش فيها الفلاحين، كما استخدمت أعمدة للخيام، واستخدمت جذوع وسعف النخيل في تسقيف الدور المبنية باللين والمساجد في الريف العراقي، حيث كانت سقوف أسواق بغداد مغطاة بسعف النخيل، الأمر الذي لفت انتباه الرحالة جيمس بكنغهام J. S. Buckingham فأشار إلى أن أسواق بغداد ”عديدة ومعظمها طويل ومستقيم نسبياً وأحسنها معقود بالطابوق، ولكن عدداً كبيراً منها مغطى بألواح تمتد فوقها لتسند السقوف المصنوعة من سعف النخيل وجذوعه الجافة“.

وفي الكويت شاهد باركلي رونكبير موكب الشيخ مبارك الصباح يسير ”عبر أطول شارع في السوق المغطى بسعف النخيل التي تسدل من خلالها بعض أشعة الشمس“.

وظاهرة الممرات المسقوفة بسعف النخيل هذه رصدها كذلك وليم جيفورد بالجريف في سوق الناصرية بالهفوف، حيث أشار إلى أنه به ”ممر بين الدكاكين مسقوف بعقود. فهو له إذن شكل أسطواني طويل لكن مدخله مفتوحان“.

وقد لاحظ جيمس بيلى فريزر J. Baillie Fraser وجود بيوت في بغداد مظلة بسعف





سعف النخيل للإضاءة ليلاً فقال ” بعد غروب الشمس، حضر من السهل جماعة تتكون من 35 ضيفاً، جلسوا في دائرة واحدة، في الفناء. وقدم لهم ثلاث صحائف كبيرة من التمر، بينما أضاء أحد العبيد المكان بسعفة نخيل موقدة جيداً من أجل الأُنس. كان يمكن للمرء أن يراقب الأوجه واللحى بوضوح تام“. وفي موضع آخر يذكر أنه قد ”تلاأت النيران، التي تم إشعالها من سعف النخيل، وكان ضوءها ساحراً مع القمر، كذلك كان الضوء وانعكاسه يعطي انطباعاً حياً وجمالياً وسط تلك المجموعة المظلمة“. ولاحظ وليد الزبيدي استخدام الرحالة الفرنسيون ”لأخشاب السعف للتدفئة أيضاً“.

النخيل أداة للقتال

نظراً للأهمية الاقتصادية والغذائية للنخيل، كما مر الذكر، فقد كان يستخدم كنوع من العقاب يمارس ضد المهزوم بتقطيع ما يملكه من نخيل، وقد أشارت إلى ذلك الليدي أن بلنت في رحلتها فذكرت أن ابن رشيد بعدما انتصر على أهل الجوف قام بقطع نخيلها كعقاب لتمرداها ”وبمناسبة واحدة من هذه التمردات قطع متعب عدداً كبيراً من أشجار النخيل، وترك المدينة في حالة نصف خراب،

لذلك، فإن جذوع النخيل هي النوع الوحيد من الأخشاب المستعملة في البناء، وهي بسبب طبيعة أليافها لا يمكن نحتها بأشكال منتظمة طبقاً للتفنن في أعمال النجارة، ولهذا تبدو الأبنية، بسبب انعدام الحجر والأخشاب فيها، واهنة كئيبة المنظر“.

ولاحظت مدام ديولافوا أن ”النخيل – زيادة على أثمارها تلك – لها فوائد جمّة أخرى إذ يستفاد من جذوعها في إقامة الأبنية ومن أوراقها في صناعة الحصران والحبال المحكمة والزنايل“.

النخيل وسيلة للتدفئة والإضاءة وإعداد الطعام

تستخدم جذوع وسعف النخيل كحطب لأغراض التدفئة والإنارة، ووقود أساسي للطبخ والشواء، وخاصة في التناير الطينية التي يشتهر بها الريف العراقي، فأشار شارل هوبير إلى أنه أقام ”مخيماً قرب جذع نخلة ربما جرفتها أمطار غزيرة ذات يوم إلى هنا، وقد استخدمناه لطهو عشائنا. وفي صبيحة اليوم التالي غادرنا هذا المخيم الجميل حيث كان جذع النخلة الجاف لا يزال يحترق“.

وذكر يوليوس أوبتغ أنه ورفاقه قد استخدموا

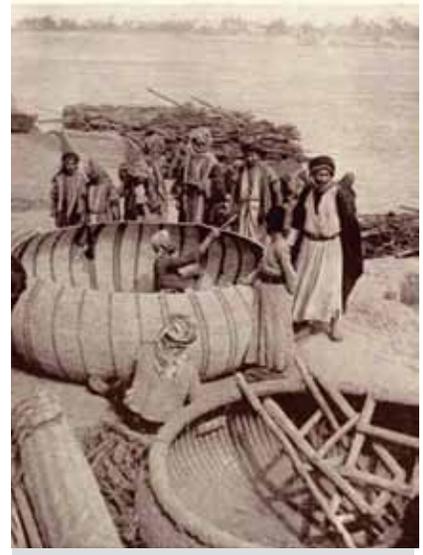
وفي مدينة العلا شاهد تشارلز داوتي أبواب وعوارض من ألواح النخيل استخدمت في البناء، حيث لفت انتباهه أن ”عوارض السقف من الأثل وفلوق النخيل، والأبواب من ألواح من النخيل منجورة بفأس نجارة رديئة“.

مما هو معروف أنه يتم نمو ما بين 12 - 15 ورقة جديدة سنوياً من شجرة النخيل تحت ظروف النمو الطبيعية، مما يستتبع إزالة عدد مساوٍ من الأوراق القديمة سنوياً؛ كجزء من عملية تربية وصيانة أشجار النخيل، وتمثل الأوراق، مصدرًا للعديد من الاستعمالات، ومن الأعمال التي مارسها زارع النخيل من الأوراق، أسوار لمزارع النخيل، فقد استخدمت أغصان النخيل (الجريد) في بناء أسياج حول المزارع، وذلك بثبوتها رأسياً في التربة مع ربطها معاً بطبقتين أو ثلاث من الألياف المصنوعة من الخوص، فنرى أن بلنت تذكر أن أهل سكاكا قاموا بتقطيع ”الأرض المربعة الشكل المزروعة بالشعير مسيجة بأسيجة مصنوعة من أغصان النخيل المجدولة، والشوارع والأزقة أنيقة بشكل دقيق“.

وكذلك لاحظ جمس بكنغهام أن جذوع النخيل تستخدم في البناء بالبصرة ”ولما كانت الأخشاب نادرة وأسعارها عالية تبعاً



بغداد العثمانية عام 1920م



القفه وسيله نقل بين ضفاف نهر دجله 1914م

الولادة، وقد اكتشف البدوي كل هذه الفوائد قبل أن يتوصل إليها الطب الحديث، فاستفاد من التمر في علاج معظم أمراضه وأسقامه. ”كما أن بعض الأدوية التي تصلح لمعالجة الروماتزم وأمراض العيون، قد اكتشفت في التمرة، وفيها نسبة مهمة من الزيت، تجعلها صالحة لصناعة الصابون، كما تصلح لتحضير زيت الطعام، وتبين أن بالإمكان استعمال النوى مادة أولية للحريز الصناعي“. وأنتج البدوي من النخيل أدوية وأدوات تجميل، ومع أن جوارماني Carlo Guarmani ينتمي إلى العصر الفكتوري، فقد كان مجبراً على انتقاد عادات العرب وتقاليدهم، فاتهم الرجال بالانغماس في اللهو والملذات، واتهم النساء بأنهن للمتعة والترف، ولكن ذلك لم يمنعه من الاعتراف بأن جمال السيدات العربيات يضاهي جمال أحسن السيدات في كانوفا Kanova، وأن شعرهن أسود وطويل ولامع، ويدهن بمرهم عطري مركب من مسحوق لحاء ساق شجرة النخل، والدهن الصالح في المستخلص من ذيل الضأن، فذكر أن ”شعرهن طويلة جداً، سوداء لماعة بفضل مرهم عديم الرائحة يقمن بتركيبه من الذرور الناعم جداً المتخذ من لحاء النخيل،

ملائم تماماً لزراعة النخيل لأن ”البصرة معروفة بشدة حرارة الشمس، وحتى في الشتاء، لذا ينمو فيها النخل وتوجد بمادة التصدير الأولى: التمور. إن النخيل يوجد بكثير من لوازم الحياة، فهو غذاء بالدرجة الأولى“.

النخيل دواء

أثبتت الدراسات الطبية الحديثة أن طلع النخيل علاجاً للعديد من الأمراض، ويفيد في الحفاظ على سلامة الجهاز العصبي، ويساعد على الوقاية من توتر الأعصاب، ويمنع انسداد الشهية، ويحافظ على سلامة اللسان والشفيتين، وهو منطف للكبد، ويستخدم ضد السعال والتهاب القصاب الهوائية، وطارد للبلغم، كما أنه مفيد في زيادة حيوية الدماغ، وتقوية الجهاز الهضمي، وقد قدم سكان وادي الرافدين الكثير من الصفات الطبية التي يدخل في تركيبها التمر، أو أحد مشتقات النخيل في علاج القروح والتقيحات، وعسر البول وآلام المعدة، وغيرها من العلل. ويفيد بشكل خاص الحوامل من النساء، إذ يحتوي على مادة مقبضة تقوي عضلات الرحم في الأشهر الأخيرة من الحمل فتساعد الأم على مواجهة الولادة، وتقلل النزف الحاصل بعد

ثم نراه في موضع آخر عندما قام بزيارة للزلفي التي يصفها بأنها ”ضاحية صغيرة“ لمدينة الكويت، لأجل معاينة رجل مسن مريض، يذكر أنها ”غابة خضراء من أشجار النخيل. في وسط تلك الغابة من النخيل تقوم بيوت الزلفي وقلاعها“، ”ودخلنا القرية من باب منخفض في أحد الأبراج المقامة حولها، ووجدنا أنفسنا في البداية وسط فسحة، بها بعض أشجار النخيل، وبعض البيوت القديمة الخربة“، و”توجد معظم بساتين النخيل بالزلفي، في جهتيها الغربية والجنوبية وتحيطها جدران من الطين ترتفع إلى ثلاثة أمتار، يعلوها سياج من سعف النخيل للحماية“.

وفي مدينة البصرة لاحظت مدام ديولافوا أن ”التمر من محاصيل هذه المدينة المهمة الأخرى يصدر منها سنوياً ألوف الأطنان إلى الخارج أيضاً، وهذه الثمرة الغربية تحوي شيئاً كثيراً من المادة السكرية، كما تحوي مقادير من الكحول التي لها شهرة عالمية، لذا تكون لها أسواق رائجة خارج البلاد، فتصدر في سلال وأقفاص تصنع من الجريد وسعف النخيل اللين، التي تحملها السفن الشراعية والبخارية“.

كما لاحظت الليدي درور أن مناخ البصرة

- أوليز موزيل: في الصحراء العربية، رحلات ومغامرات في شمال جزيرة العرب 1908-1915، ترجمة عبد الإله الملاح، (أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2010).
- أنا ماري شيمل: الشرق والغرب: حياتي الغرب - شرقية، ترجمة عبد السلام حيدر، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004).
- باركلي رونكيير: عبر الجزيرة العربية على ظهر جمل، ترجمة منصور محمد الخريجي، (الرياض: مكتبة العبيكان، 1999).
- بكنهام: رحلة بكنهام، وصف بغداد، ترجمة محمد علي حلاوي، بغداد بأقلام، رحلة (لندن: دار الوراق للنشر المحدودة، 2007).
- تايلر: رحلة تايلر إلى العراق، ترجمة بطرس حداد، رحلة أوروبيون في العراق، (لندن: دار الوراق للنشر المحدود، 2007).
- تنكو أنيهولت: رحلة هولندي في العراق، ترجمة مير بصري، رحلة أوروبيون في العراق، (لندن: دار الوراق للنشر المحدود، 2007).
- جان بابتيست تافرنيه: رحلة الفرنسي تافرنيه إلى العراق في القرن السابع عشر، ترجمة كوركيس عواد، وبشير فرنسيس، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2006).
- جمس بكنغهام: رحلتي إلى العراق سنة 1816، ترجمة سليم طه التكريتي، الجزء الثاني (بغداد: مطبعة أسعد، 1969).
- جوهن جاكوب هيس: بدو وسط الجزيرة (عادات - تقاليد - حكايات وأغان)، ترجمة محمود كيببو، تقديم محمد سلطان العتيبي (بغداد: دار الوراق للنشر المحدودة، 2010).
- عبد الجبار البكر: نحلة التمر ماضيها وحاضرها، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2002).
- عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العرب الحديث الجزء الأول: العراق، (القاهرة: الجهاز المركزي للكتب الجامعية، 1976).
- عبد الوهاب الدباغ: النخيل والتمر في العراق، (بغداد: مطبعة شفيق، 1969).
- عماد محمد ذياب الحفيظ: النخيل والتمر في التراث العربي والإسلامي، (عمان: دار الياقوت للنشر والتوزيع، 2002).
- عوض البادي: الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية (منطقة الجوف ووادي السرحان) 1845-1922، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2002).
- نائل حنون: شريعة حمورابي، الجزء الثاني، (دمشق: دار المجد للطباعة والنشر، 2005).
- نهاد فتاح الترك: التمر غذاء ودواء، (القاهرة: شمس للنشر والتوزيع، 2008).
- وليد كاصد الزبيدي: بغداد في مذكرات الرحالة الفرنسيين (عمان: دار المناهج للنشر والتوزيع، 2009).
- ياقوت الحموي: معجم البلدان، الجزء الخامس، (بيروت: دار صادر، 1977).
- يحيى شامي: الشرك الجاهلي وآلهة العرب المعبودة، (بيروت: دار الفكر العربي، 1993).
- كتب معربة
- الأب فيليب الكرمل: الرحلة الشرقية للأب فيليب الكرمل (1629)، ترجمة بطرس حداد، رحلة أوروبيون في العراق، (لندن: دار الوراق للنشر المحدود، 2007).
- الليدي درور: على ضفاف دجلة والفرات، ترجمة فؤاد جميل، (لندن: شركة الوراق للنشر المحدودة، 2008).
- ومن الدهن المصفى من إلية الخروف، ربما كان لهذا المستحضر التجميلي البسيط والنقي، إمكانية رسم البسمة على شفاه الحزينا من جميلات الغرب.
- وباختصار، كانت النحلة، وما زالت، إحدى مقومات الحياة للعراقي خاصة، والإنسان في منطقة الخليج العربي والجزيرة العربية عامة، ودخلت بأجزائها في مختلف تفاصيل حياته، وأضحت معلماً من معالمها، فاستخدم جميع أجزائها في أغراض متعددة. حقاً... إن النحلة هبة من المولى - عز وجل - للبشرية بعطائها الزاخر، لذلك استحققت أن تكون أسطورة الأجيال.

المصادر والمراجع باللغة العربية

- أحمد عبد الرحيم نصر: التراث الشعبي في أدب الرحلات، (الدوحة: مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، 1995).
- جمال محمود حجر: الرحالة الغربيون في المشرق الإسلامي في العصر الحديث، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 2008).
- سعد بن أحمد الربيع: رحلة الحاج من الزبير إلى البلد الحرام، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2011).
- سميح دغيم: أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، (بيروت: دار الفكر اللبناني، 1995).
- عاطف محمد إبراهيم: محمد نظيف حجاج خليف: نحلة التمر... زراعتها، رعايتها وإنتاجها في الوطن العربي، (الإسكندرية: منشأة المعارف، 1993).
- شحاتة أحمد عبد الفتاح: موسوعة النخيل والتمر، (القاهرة: دار الطلائع للنشر والتوزيع، 2000).
- عباس العزاوي: النخل في تاريخ العراق، (بغداد: مطبعة أسعد، 1962).



العراق، (بيروت: دار العربية للموسوعات، 2006).

مقالات في دوريات

• آدمون لاسو: ”النخلة هي علم بلادتي“، مجلة ميزوبوتاميا، العدد 13-14 (شباط 2008).

• بسام طالب: ”النخلة شجرة العرب المباركة وسيدة الشجر“، مجلة الدوحة، العدد 117، (سبتمبر 1985).

• جريدة السياسة (الكويت)، السنة 7، العدد 1491، 9 أغسطس 1973.

• سليمان محمود حسن: ”خوص النخيل في التراث العربي“، مجلة المأثورات الشعبية، العدد 44، (أكتوبر 1996).

• طالب عبد العزيز: ”نخيل البصرة من 13 مليوناً عام 1977 إلى أقل من مليونين“، مجلة ميزوبوتاميا، العدد 16 (شباط 2009).

• مشاري عبد الله النعيم: ”تصوير النخلة في النقوش الزخرفية في منطقة الأحساء“، مجلة المأثورات الشعبية، العدد 43، (يوليو 1996).

• محمد جبر الحمداني: ”النخيل والبيئة... نطف العراق الدائم“، مجلة ميزوبوتاميا، العدد 11، (نيسان 2007).

• يسرى ناصر مهنا: ”النخلة تلك الشجرة المباركة“، جريدة الشرق القطرية، العدد 8226، الجمعة 18 محرم 1432هـ/ 24 ديسمبر 2010م.

مشعان الفيصل الجريا سنة 1962، ترجمة قسم الترجمة في المؤسسة (بيروت: دار العربية للموسوعات، 2011).

• لوريمر ج. ج.: دليل الخليج، القسم الجغرافي، الجزء الثالث، (الدوحة: ديوان أمير دولة قطر، 2002).

• ليدي آن بلنت: رحلة إلى نجد مهد العشائر العربية، ترجمة أحمد إيبش، (دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، 2005).

• ماكس فرايهر فون أوبنهايم: البدو، الجزء الثاني: فلسطين - سيناء - الأردن - الحجاز، ترجمة محمود كبيبو (لندن: شركة دار الوراق للنشر المحدودة، 2007).

• ماكس فرايهر فون أوبنهايم: البدو، الجزء الرابع: خوزستان- إيران ”عربستان“، ترجمة محمود كبيبو (لندن: شركة دار الوراق للنشر المحدودة، 2007).

• ماكس أوبنهايم: رحلة إلى ديار شمر وبلاد شمال الجزيرة، مراجعة وتدقيق محمود كبيبو، (بغداد: دار الوراق للنشر، 2007).

• ماكس فون أوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج: لبنان وسوريا، ترجمة محمود كبيبو (لندن: دار الوراق للنشر المحدودة، 2008).

• مدام ديولافوا: رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة وبغداد 1881م/ 1299هـ، ترجمة علي البصري، (بيروت: دار العربية للموسوعات، 2007).

• ميهاي فضل الله الحداد: رحلتي إلى بلاد الرافدين وعراق العرب، ترجمة تائر صالح (بيروت: كتب للنشر والتوزيع، 2004).

• نواب حميد يار جونك بهادر: رحلة إلى بغداد، ترجمة كاظم سعد الدين، بغداد بأقلام رحالة، (لندن: دار الوراق للنشر المحدودة، 2007).

• ويلفريد فيسجر: رحلة إلى عرب أهوار

• جيمس بيلي فريزر: رحلة فريزر إلى بغداد سنة 1834، ترجمة جعفر الخياط (بيروت: دار العربية للموسوعات، 2006).

• جيمس ريموند ولستيد: رحلتي إلى بغداد في عهد الوالي داود باشا، ترجمة سليم طه التكريتي، (بغداد: مطبعة ثويني، 1984).

• 1897-1809، ترجمة الأب بطرس حداد، (بغداد: شركة بيت الوراق للنشر المحدودة، 2011).

• ديكسون: عرب الصحراء، (بيروت: دار الفكر المعاصر، 1996).

• روبن بدول: الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ترجمة عبد الله آدم نصيف، (الرياض: المترجم، 1989).

• شارل هوبير: رحلة في الجزيرة العربية الوسطى 1878-1882، ترجمة إليسا سعادة، (بيروت: كتب للنشر والتوزيع، 2003).

• كارستن نيبور: مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة إلى الحلة سنة 1765، ترجمة سعاد هادي العمري، (بغداد: دار المعرفة، 1955).

• كارستن نيبور: رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر، ترجمة محمود حسين الأمين (بغداد: شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، 1965).

• كارلو كلاوديو جوارماني: نجد الشمالي، رحلة من القدس إلى عُنيزة في القصيم، ترجمة أحمد إيبش، (أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2009).

• كاسبارو بالبي: رحلة الإيطالي كاسبارو بالبي إلى حلب - دير الزور - عنه - الفلوجة - بغداد سنة 1597، ترجمة بطرس حداد (بيروت: دار العربية للموسوعات، 2008).

• لوثر شتاين: رحلة إلى شيخ قبيلة شمر

★ باحث دكتوراه في تاريخ العراق الحديث